فرويد ونظرية التحليل النفساني

للدكتور أحمـــد فؤاد الأهواني

مذهب فرويد أو فلسفته من المذاهب التي لقيت رواجاً عظيما في العصر الحاضر ، وأحدثت انقلاباً في علم النفس ، وانقسم العلماء بالنسبة لآرائه إلى فريقين : معسكر الأنصار والمعجبين والتلاميذ ، ومعسكر المنكرين والناقدين . ومن تلامذته الذين خرجوا عليه وكونوا مذاهب جديدة في تفسير الحياة الإنسانية « أدلر ويونج » .

ويرمي فرويد — كما يرمي غيره من علماء النفس — إلى تفسير الأعمال الصادرة عن الإنسان . فليس هناك عمل نفسي مهما خيل إلينا أنه تافه يخلو من معنى . فإذا بدا لنا أحد هذه الأعمال غبياً ، فواجبنا أن نسعى إلى كشف العلة في حدوثه ، والغرض الذي يرمي إليه ، والنزعة التي دفعت إليه

ونضرب مثلا لما قدمنا يوضح ما يذهب إليه فرويد قبل أن ندخل في صميم نظريته : دخلت خطيبة إلى الحمام وخلعت خاتم الخطبة ونسيت أن تلبسه ثانياً ، ثم أخذت تبحث عنه ولم تهتد إلى مكانه . نسيان الخاتم سلوك صدر عن الفتاة قد يفسره البعض أنه راجع إلى الشرود أو الانشغال أو الصدفة . وكثير من الناس لا يجدون تعليلا لهذا العمل . أما فرويد فيجعل السبب في ذلك رغبة الفتاة عن خطيبها وعدم رضائها عن الزواج ، فتحركها هذه الرغبة الباطنة التي لا تشعر بها ، لأنها موجودة في اللاشعور إلى نسيان الخاتم ، وهو رمز الزواج .

هذه النظرة إلى الأعمال الإنسانية علمية وديناميكية .

فهي علمية لأن فرويد يحاول ربط الظاهر بالأسباب كما يجري في عالم الطبيعة . فهي نظرة جبرية Determinist . وليس هذا مما يعاب على فرويد ، بل على العكس مما يمدح به محاولته هذا التفسير الجبري الذي بدونه لا يستقيم العلم الصحيح ، بل يخرج علم النفس من ميدان العلوم .

وهي نظرة ديناميكية ، لأنه يجعل للنفس الإنسانية قوى متحركة يصدر عنها السلوك . وفي ذلك يقول في كتابه « مدخل إلى التحليل النفساني » ما يأتي :

« ليس غرضنا أن نصف ونرتب الظاهر فحسب ، بل نريد أيضاً أن نراها علامات على حركة القوى العاملة في النفس ، كأنها مظاهر ميول لها غرض محدود ، سواء أكانت هذه الميول تعمل في اتجاه واحد أم في اتجاهات متعارضة . إننا نسعى وراء تكوين نظرة ديناميكية Conception dynamique للمظاهر النفسية »

وقد أوردت هذا النص لعلة ، ذلك أن أحد الباحثين في علم النفس ، وهو الدكتور يوسف مراد المدرس بكلية الآداب قال في كتابه « شفاء النفس » ص ٩٥ ما يأتي :

« تمتاز فلسفة فرويد بكونها ميكانيكية جبرية ، فإنها تنظر إلى الإنسان كأنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة » . وقال في مكان آخر : « أما فلسفة ادلر ، فهي على نقيض فلسفة فرويد ، تمتاز بكونها غائية اختيارية تفاؤلية . ونعلم أن المذهب الغائي على نقيض المذهب الميكانيكي » ص ٩٧ — ٩٨ . فهو يجعل مذهب فرويد ميكانيكياً

ويقول الطبيبان ريجي وهستار في كتابهما التحليل النفساني ص١٥ : « إن نظرية فرويد تمثل الحياة النفسية في نظرة موضوعية على طريقة النظر إلى الوقائع العلمية ، كما تمثلها مذهباً (System) يتطور باستمرار ، يحتوي على قوى أولية متعارضة أو مكونة أو منتجة . ونستطيع تطبيق اصطلاح علم النفس الديناميكي على هذه النظرة الديناميكية للعقل »

وقد أخطأ الدكتور يوسف مراد خطأ آخر ص٩٧ : « وأخيراً يجب أن نشير إلى الشجاعة التي واجه بها فرويد المشكلة الجنسية وإلى الدقة الفائقة التي حلل بها مختلف مظاهر الوظيفة الجنسية ، غير أنه أسرف ، وخاصة تلامذته ، في إرجاع كل ظاهرة سلوكية إلى الغريزة الجنسية »

وليس الأمر كذلك عند فرويد ، لأنه لا يرجع كل شيء إلى الغريزة الجنسية ، بل بعض تلامذته ، وأولئك الذين كتبوا عنه كتابات شعبية تحمل معنى التعميم والتبسيط . وقد دافع فرويد عن نفسه ضد الذين يخطئون فهمه فقال : « لقد كررت وأعلنت بكل وضوح ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، بمناسبة الأمراض النفسية الانتقالية ، أنني أميز تماماً بين الغريزة الجنسية وبين الغريزة النفسية (Tchtriebe) ، وأن الليبيد Libida ، يعني نشاط الغريزة الجنسية . إنه يونج — لا أنا — الذي

يجعل من الأبيد مساوياً للدافع الغريزى لجميع القوى النفسية ».

وقال فرويد فى موضع آخر : « لم يغفل التحليل النفسانى مطلقاً وجود ميول غير جنسية ، وقد أقام التحليل النفسانى بناءه على مبدإ الفصل التام الواضح بين الميول الجنسية والميول المتصلة بالذات أو الأنا le moi ، وقد أثبت التحليل دون انتظار الاعتراضات الموجهة إليه ، أن الأمراض النفسية ليست نتيجة الغريزة الجنسية ، بل نتيجة الصراع بين الأنا والغريزة الجنسية Conflit entre Le moi et la sexuatité» .

وهنا نجد أن الدكتور يوسف مراد يقع فى خطأ ثالث إذ يقول : « إذ ليس هذا رأى فرويد كما رأينا ، لأن المرض قد يقع نتيجة الصراع بين الغريزة الجنسية والأنا فى حالة الشعور ، وقد يكون الصراع فى اللاشعور فقط . فالمتين الذى يشعر بعجزه عن مباشرة المرأة يضطرب نفسانياً لشعوره بالضعف ».

والغريب أن الدكتور يوسف مراد أنصف نظرية فرويد ص ٨٦ بقوله: « والواقع أن المشكلة النظرية التى أثارها التعارض بين فرويد وأدلر لا تزال حتى الآن متعلقة . بل يبدو أن النزاع بين الفريقين يزداد عنفاً ويتجاوز حدود المناقشة العلمية الهادئة إلى أساليب التهكم والتحقير » . ثم عاد وحقر نظريته بما يخرج عن الأسلوب العلمى

وأذكر الآن حالة مريض عالجته على طريقة فرويد لأثبت صحة نظريته . جاءنى شاب يشكو ضيقاً وقلقاً وتبرماً وانصرافاً عن الاستذكار ، وتبلغ سنه اثنين وعشرين عاماً ، يعيش مع أخيه الأكبر ، يتناول من والده مرتباً لمصروفه الشخصى أربعة جنيهات فى الشهر . سألته عن أحواله الجنسية فقال : إنه يتصل بالعاهرات ، ولكنه لايستطيع الزواج نظراً للظروف الاجتماعية إذ لايزال طالباً ، ولايستطيع الصبر عن المرأة . وبالبحث اتضح أن ضميره يؤنبه على هذه الصلة غير الشريفة ، فهناك صراع بين الغريزة الجنسية وبين نفسه الخلقية ، وكلاهما كان فى مستوى الشعور ، وحلت المشكلة بتعليمه التسامى بالغريزة الجنسية نحو الموسيقى التى برع فيها .

وحيث كان فرويد يجعل للغريزة الجنسية أهمية كبيرة فى حياة الإنسان ، ويجعل لتجاربه الماضية المسجلة فى اللاشعور أثراً فى سلوكه الحاضر ، فقد بحث فى الحياة الجنسية للفرد منذ ولادته ، حتى دور الراهقة ، وافترض أن الرضيع يشعر بلذة جنسية من امتصاص ثدى أمه ومن إخراج الفضلات ومن الملامسة مما لا يتسع تفصيله الآن

وإنما نذكر أهم الاعتراضات العلمية التى توجه إلى نظرية فرويد لتكون ماثلة بالبال

وأولها أن نسبة لذة جنسية إلى الرضيع والصغير فيها شىء كثير من الإسراف والغلو بل الجرأة . ثم إن فرويد يقيم بناء نظريته على دراسة المرضى والشواذ ، ويتخذ من هؤلاء سبيلا إلى أحكام عامة يصدرها على سواد الناس وهم الأغلبية ، فيحكم بالخاص على العام ، وبالشاذ على السليم . كما أنه لا يعنى أن تفسر شخصية الإنسان فى ضوء الغريزة الجنسية ، ولو عكسنا لأصبنا الحق ، فتصبح الغريزة الجنسية وما يتبعها من مظاهر إحدى وظائف الفرد التى تدخل فى حسابنا ، وليست كل وظائفه على رأى المغالين فى مذهب فرويد .

أحمد فؤاد الأهوانى

بادر باقتناء نسختك

قبل نفادها

من كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

يطلب من دار « الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً عدا البريد